

## تفسير سورة فاطر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَّةَ ۖ وَرَبِّعَ ۖ زَيْدٌ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قال ابن عباس: كنت لا أدري: ما فاطر السموات والارض ، حتى اتانى اعرابيان يختصمان فى بئر، فقال احدهما لصاحبه : انا فطرتها ، انا بداتها . وقال ابن عباس أيضاً : ﴿ فاطر السموات والارض ﴾ : بديع السموات والارض . وقال الضحاك : كل شىء فى القرآن « فاطر السموات والارض » فهو: خالق السموات والارض .

وقوله تعالى : ﴿ جاعل الملائكة رسلاً ﴾ اى : بينه وبين انبيائه ﴿ اولى اجنحة ﴾ اى : يطيرون بها ليلفوا ما امروا به سريعاً ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ اى : منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له اربعة ، ومنهم من له اكثر من ذلك ، كما جاء فى الحديث : ان رسول الله ﷺ رأى جبريل ليلة الاسراء وله ستمائة جناح ، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ، ولهذا قال : ﴿ يزيد فى الخلق ما يشاء ان الله على كل شىء قدير ﴾ قال السدى : يزيد فى الاجنحة وخلقهم ما يشاء . وقال الزهرى ، وابن جرير فى قوله : ﴿ يزيد فى الخلق ما يشاء ﴾ معنى : حسن الصوت .

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

يخبر تعالى انه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن ، وانه لا مانع لما اعطى ، ولا معطى لما منع . روى الإمام أحمد عن وراد (١) - مولى المغيرة بن شعبه - قال : كتب معاوية إلى المغيرة بن شعبه : اكتب إلى بما سمعت من رسول الله ﷺ . فدعانى المغيرة فكتبت إليه : انى سمعت رسول الله ﷺ إذا انصرف من الصلاة قال : لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، اللهم لا مانع لما اعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد ، وسمحته ينهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ، وعن واد البنات ، وعقوق الامهات ، ومنع وهات . واخرجاه (٢) . وثبت فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى . ان رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : « سمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السماء والارض ، وملء ما شئت من شىء بعد . اللهم ، اهل الثناء والمجد . احق ما قال العبد ، وكلنا نك عبد .

(١) فى المخطوطة : « وارد » وهو خطأ ، صوابه كما اثبتنا من المطبوعة ومصادر التخریج . وفى رواية البخارى والمطبوعة : « كاتب المغيرة » .

(٢) المسند (٤/٢٥٤) ، والبخارى (٨٤٤) ، وسلم (١٣٧/٥٩٣) .

اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد (١) .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمْسُكِ اللَّهُ بَصْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ ﴾  
أيونس : ١٠٧ . ولهذا نظائر كثيرة . كان أبو هريرة إذا مطروا يقول : مطرنا بنوء الفتح ، ثم يقرأ هذه الآية : ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ لَهُ مِنْ عَدُوٍّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ بَرَزَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَ تُؤْفِكُونَ ﴾

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في أفراد العبادة له ، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فلiefert بالعبادة ، ولا يشرك به غيره من الأصنام والانداد والأوثان ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَ تُؤْفِكُونَ ﴾ أي : فكيف تؤفكون بعد هذا البيان ، ووضوح هذا البرهان ، وأنتم بعد هذا تعبدون الانداد والأوثان ؟

﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ اللَّهُ الْفُرُورُ ﴾ ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

يقول تبارك وتعالى : وإن يكذبوك - يا محمد - هؤلاء المشركون بالله ويخالفوك فيما جنتهم به من التوحيد ، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة ؛ فإنهم كذلك جازوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أي : وسنجزئهم على ذلك أوفر الجزاء .

ثم قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي : المعاد كائن لا محالة ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أي : العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسنه من الخير العظيم فلا تتلهوا عن ذلك الباقى بهله الزهرة الفانية ، ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ اللَّهُ الْفُرُورُ ﴾ وهو الشيطان . فإنه ابن عباس . أي : لا يفتنكم الشيطان وصرفتكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته فإنه غرار كذاب أفاك . وهذه الآية كالأية التي في آخر لقمان : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ اللَّهُ الْفُرُورُ ﴾ [لقمان : ٣٣] . قال زيد بن أسلم : هو الشيطان . كما قال : يقول المؤمنون للمنافقين يوم القيامة حين يضرب ﴿ بَيْنَهُمْ بَسُورٌ لَهُ بَابٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ : ﴿ يَتَذَكَّرُ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَكُنْتُمْ فِتْنًا أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصُوا وَارْتَبِعُوا غُرَّتَكُمْ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغُرَّتُمْ بِاللَّهِ الْفُرُورُ ﴾ [الحديد : ١٤] .

ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ أي : هو مبارز لكم بالعداوة ، فعادوه أنتم أشد العداوة ، وخالفوه وكذبوه فيما يفرمكم به ﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أي : إنما يقصد أن يضللكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير ، فهذا هو العدو البين . فسأل الله القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان ، وأن يرزقنا اتباع كتابه ، والاقتفاء بطريق رسوله ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير . وهذه كقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ

كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَحَدِّثُونَهُ مَوْعِظَةً مِّن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ [ الكهف : ٥٠ ] .

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ﴿٥١﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوهُ عَمَلِهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا فَإِن لَّوَّ يَبْغِضُ مِنَ اللَّهِ لَنُعَذِّبَنَّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٥٢﴾

لما ذكر تعالى أن اتباع إبليس مصيرهم إلى السعير ، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد ، لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن ، وأن الذين آمنوا بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي : لما كان منهم من ذنب ، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على ما عملوه من خير .

ثم قال تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوهُ عَمَلِهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا ﴾ يعني : كالكفار والفجار ، يعملون أعمالا سيئة ، وهم في ذلك يعتقدون ويحبون أنهم يحسنون صنعا ، أي : أفمن كان هكذا قد أضله الله ، ألك فيه حيلة ؟ لا حيلة لك فيه ﴿ فَإِن لَّوَّ يَبْغِضُ مِنَ اللَّهِ لَنُعَذِّبَنَّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ أي : بقدره كان ذلك ﴿ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتًا ﴾ أي : لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم في قدره ، إنما يضل من يضل ويهدي من يهدي ، لما له في ذلك من الحجة البالغة ، والعلم التام ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ . وعن عبد الله بن الديلمى قال : أتيت عبد الله بن عمرو ، وهو في حائط بالطائف يقال له : الوهط ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله خلق خلقه في ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى ، ومن أخطاه منه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على ما علم الله عز وجل » (١) .

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَنِيْرٌ مِّمَّا يَبْرِئُهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيْتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ ﴿٥٣﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿٥٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُّعْتَمِرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٥٥﴾

كثيرا ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ، بينه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك ، فإن الأرض تكون ميتة هامة لا نبات فيها ، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وانزله عليها ﴿ اهْتَرَتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [ الحج : ٥ ] ، كذلك الأجساد ، إذا أراد الله تعالى بعثها ونشورها ، انزل من تحت العرش مطرا يعم الأرض جميعا فتنبت الأجساد في قبورها كما تنبت الحبة في الأرض ؛ ولهذا جاء في الصحيح : « كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب ، منه خلق ومنه يركب » (٢) ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ .

(١) الترمذى (٢٦٤٢) وقال : « هذا حديث حسن » وصححه الألبانى .

(٢) مسلم (١٤٢/٢٩٥٥) .

وقوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ أى : من كان يحب أن يكون عزيزاً فى الدنيا والآخرة ، فليزِم طاعة الله ، فإنه يحصل له مقصوده ، لأن الله مالك الدنيا والآخرة ، وله العزة جميعها ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَخَذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَمِيتُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [ النساء : ١٣٩ ] .

وقال عز وجل : ﴿ وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [ يونس : ٦٥ ] ، وقال : ﴿ وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَإِرْسُولُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [ المنافقون : ٨ ] .

وقوله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ يعنى : الذكر والتلاوة والدعاء . قاله غير واحد من السلف . روى ابن جرير عن المخارق بن سليم قال : قال لنا عبد الله - هو ابن مسعود - إذا حدثناكم حديثاً أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله : إن العبد المسلم إذا قال : « سبحان الله وبحمده ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، تبارك الله » ، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ، ثم صعد بهن إلى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن ، حتى يجيء بهن وجه الرحمن عز وجل ، ثم قرأ عبد الله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (١) .

روى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : « الذين يذكرون من جلال الله ، من تسيحه وتكبيره وتحميده وتهليله ، يتعاطفن حول العرش ، لهن دوى كدوى النحل ، يذكرن بصاحبهن الا يحب أحدكم الا يزال له عند الله شيء يذكر به ؟ » . وهكذا رواه ابن ماجه (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ قال ابن عباس : الكلم الطيب : ذكر الله ، يصعد به إلى الله ، عز وجل ، والعمل الصالح : أداء الفريضة . ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه ، رد كلامه على عمله ، فكان أولى به . وكذا قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب . وكذا قال أبو العالية ، وعكرمة ، وغير واحد . وقال إياس بن معاوية القاضى : لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام . وقال الحسن ، وقتادة : لا يقبل قول إلا بعمل .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وشهر بن حوشب : هم المراءون بأعمالهم ، يعنى : يمكرون بالناس ، يوهمون أنهم فى طاعة الله ، وهم بقضاء إلى الله عز وجل ، يراؤون بأعمالهم ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [ النساء : ١٤٢ ] . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المشركون . والصحيح أنها عامة ، والمشركون داخلون بطريق الأولى ، ولهذا قال : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ أى : يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لاولى البصائر والنهى ، فإنه ما أسر عبد سريرة إلا أبدأها الله على صفحات وجهه وقلبات لسانه ، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداءها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . فالمرائى لا يروج امره ويستمر إلا على عيب ، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم ، بل يكشف لهم عن قريب ، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ أى : ابتدا خلق أبيكم آدم من تراب ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أى : ذكراً وأنثى ، لطفاً منه ورحمة ان جعل لكم أزواجاً

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٢/٨٠) .

(٢) المسند (٤/٢٦٨) وابن ماجه (٩/٣٨٠) وفى الزوائد للبوصيرى : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » وصححه الألبانى .

من جنسكم ، لتسكنوا إليها ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أى : هو عالم بذلك ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ، بل ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الانعام : ٥٩] . وقد تقدم الكلام على قوله تعالى : ﴿اللَّهُ يَهْتَمُّ بِمَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِمُ﴾ [الرعد: ٨ ، ٩] .

وقوله : ﴿وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أى : ما يعطى بعض النطف من العمر الطويل يعلمه ، وهو عنده فى الكتاب الاول ﴿وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ الضمير عائد على الجنس ، لا على العين ؛ لأن الطويل العمر فى الكتاب وفى علم الله لا ينقص من عمره ، وإنما عاد الضمير على الجنس . قال ابن جرير : وهذا كقولهم : «عندى ثوب ونصفه» أى : ونصف آخر . وعن ابن عباس فى قوله : ﴿وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ، يقول : ليس أحد قضيت له طول عمرٌ وحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك له ، فلما انتهى إلى الكتاب الذى قدرت لا يزداد عليه ، وليس أحد قضيت له انه قصير العمر والحياة يبالغ للعمر ، ولكن انتهى إلى الكتاب الذى كتبت له ، فذلك قوله : ﴿وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ، يقول : كل ذلك فى كتاب عنده . وهكذا قال الضحاك بن مزاحم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه : ﴿وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ قال : ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام . وقال عبد الرحمن فى تفسيرها : ألا ترى الناس ، يعيش الإنسان مائة سنة ، وآخر يموت حين يولد ، فهذا هذا . وقال قتادة : والذى ينقص من عمره : فالذى يموت قبل ستين سنة . وقال مجاهد : ﴿وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أى : فى بطن أمه يكتب له ذلك ، لم يخلق الخلق على عمر واحد ، بل لهذا عمر ، ولهذا عمر هو انقص من عمره ، وكل ذلك مكتوب لصاحبه ، بالغ ما بلغ . وقال بعضهم : بل معناه : ﴿وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ أى : ما يكتب من الأجل ﴿وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ : وهو ذهابه قليلا قليلا ، الجميع معلوم عند الله سنة بعد سنة ، وشهراً بعد شهر ، وجمعة بعد جمعة ، ويوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، الجميع مكتوب عند الله فى كتاب . واختار ابن جرير القول الاول ، وهو كما قال . وروى النسائى عن أنس بن مالك ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سره أن ييسر له فى رزقه ، ويسأله فى أثره فليصل رحمه » . وقد رواه البخارى ومسلم وأبو داود (١) .

وقوله : ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أى : سهل عليه ، يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله فى جميع مخلوقاته ، فإن علمه شامل للجميع لا يخفى عليه شيء منها .

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ نَاقِلُونَ لِحَاطًا طَرِبًا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاقِرَ لَتَبْتَفَعُوا مِنْ فَضْلِهِ . وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾  
يقول تعالى منها على قدرته العظيمة فى خلقه الاشياء المختلفة : خلق البحرين العذب الزلال ، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس ، من كبار وصغار ، بحسب الحاجة إليها فى الأقاليم والأمصار ، والعمران والبرارى والقفار ، وهى عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ وهو البحر

(١) النسائى فى الكبرى (١١٤٢٩) . ورواه البخارى برقم (٢٠٦٧) ، ومسلم (٢٥٥٧/٢٠) ، وأبو داود (١٦٩٣) .

الساكن الذى تسير فيه السفن الكبار ، وإنما تكون مألحة زعاقاً مرة ، ولهذا قال : ﴿ وَهَذَا مَلْحٌ أجاج ﴾ أى : مر .

ثم قال : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ تَأْكُلُونَهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ يعنى : السمك ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ . فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [ الرحمن : ٢٢ ، ٢٣ ] .

وقوله : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرُ (١) ﴾ أى : تمخره وتشقه بحيزومها ، وهو مقدمها السنم الذى يشبه جوجو الطير - وهو : صدره . وقال مجاهد : تمخر الريح السفن ، ولا يخر الريح من السفن إلا العظام .

وقوله : ﴿ لِنَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى : بأسفاركم بالتجارة ، من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ﴿ وَقَلَّكُمْ نَشْكُرُونَ ﴾ أى : تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم ، وهو البحر ، تصرفون فيه كيف شئتم ، وتذهبون أين أردتم ، ولا يمتنع عليكم شيء منه ، بل بقدرته قد سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ، الجميع من فضله ومن رحمته .

﴿ يُرِيحُ الْيَلْدَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٠﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَا يُسْمِعُوا كَمَا سَمِعْتُمْ أَمْ أَرَأَيْتُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِكُمْ فِي الْيَوْمِ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١١﴾ ﴾

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم ، فى تسخيره الليل بظلامه والنهار بضيائه ، وبأخذ من طول هذا فيزيده فى قصر هذا فيبتلان . ثم يأخذ من هذا فى هذا ، فيطول هذا ويقصر هذا ، ثم يتقارضان صيفاً وشتاء ، ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أى : والنجوم السيارات ، والثوابت الثابتات بأضوائهن أجرام السموات ، الجميع يسرون بمقدار معين ، وعلى منهاج مقنن محرر ، تقديراً من عزيز عليم ﴿ كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى : إلى يوم القيامة ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أى : الذى فعل هذا هو الرب العظيم ، الذى لا إله غيره ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى : من الأنداد والأصنام التى هى على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم : القطمير : هو اللفافة التى تكون على نواة التمرة ، أى : لا يملكون من السموات والأرض شيئاً ، ولا بمقدار هذا القطمير .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ ﴾ يعنى : الآلهة التى تدعونها من دون الله لا يسمعون دعاءكم ؛ لأنها جماد لا أرواح فيها ﴿ وَلَا يُسْمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ أى : لا يقدرتون على ما تطلبون منها ، ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ أى : يتبرؤون منكم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دَعْوَتِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [ الاحقاف : ٥ ، ٦ ] ، وقال : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [ مريم : ٨١ ، ٨٢ ] .

وقوله : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ أى : ولا يخبرك بعواقب الامور ومآلها وما تصير إليه ، مثل خبير

(١) فى المخطوطة : مواجر فيه . وهو خطأ ، صوابه ما أئبناه .

بها . قال قتادة : يعنى نفسه تبارك وتعالى ، فإنه اخبر بالواقع لا محالة .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْئًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾

ربع

يخبر تعالى بغنائه عما سواه ، وبافتقار المخلوقات كلها إليه ، وتذللها بين يديه ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أى : هم محتاجون إليه فى جميع الحركات والسكنات ، وهو الغنى عنهم بالذات ، ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أى : هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له ، وهو الحميد فى جميع ما يفعله ويقول ، ويقدره ويشعره .

وقوله : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أى : لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم ، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا ﴾ أى : وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تساعد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ﴿ لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْئًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ أى : ولو كان قريباً إليها ، حتى ولو كان أباً أو ابناً ، كل مشغول بنفسه وحاله .

ثم قال : ﴿ إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ أى : إنما ينظ بما جئت به أولو البصائر والنهى ، الخائفون من ربهم ، الفاعلون ما أمرهم به ﴿ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ﴾ أى : ومن عمل صالحاً فإنما يعود نفعه على نفسه ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى : وإليه المرجع والمآب ، وهو سريع الحساب ، وسيجزى كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿٢١﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٢﴾ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ ﴿٢٣﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَنْجَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٤﴾ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٥﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّن أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٦﴾ وَإِن يَكذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴿٢٧﴾ وَإِلَيْكَ نَكْتَبُ الْمُنِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٩﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ ٢١ - ٢٢ - ٢٣ ﴾ هذه الاثارة لذاتية المخلقة ، كالاعمى والبصير لا يستويان ، بل بينهما فرق ويون كثير ، وكما لا تستوى الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، كذلك لا تستوى الاحياء ولا الاموات . وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين وهم الاحياء ، وللكافرين وهم الاموات ، كقوله تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِنَّا فَأَحْبَبْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَىٰ بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ نَلَّهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ [ الانعام : ١٢٢ ] ، وقال عز وجل : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ [ هود : ٢٤ ] فاللؤمن سميع بصير فى نور يمشى ، على صراط مستقيم فى الدنيا والآخرة ، حتى يستقر به الحال فى

الجنات ذات الظلال والعيون ، والكافر أعمى أصم ، فى ظلمات يمشى ، لا خروج له منها ، بل هو يتيه فى فيه وضلاله فى الدنيا والآخرة ، حتى يفضى به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم ﴿وَعَلَّزَّ مِنْ بَهِيمٍ لَا يَأْرُدُ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [ الرافعة : ٤٣ ، ٤٤ ] .

وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أى : يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانتقاد لها ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أى : كما لا ينتفع الاموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم ، وهم كفار بالهداية والدعوة إليها ، كذلك هؤلاء المشركون الذين كُتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم ، ولا تستطيع هدايتهم . ﴿إِنَّ أَنْتَ لِأَنْذِيرٌ﴾ أى : إنما عليك البلاغ والإنذار ، والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء . ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أى : بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين ﴿وَأَنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أى : وما من أمة خلت من بنى آدم إلا وقد بعث الله إليهم النذير ، وأراح عنهم العلل ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [ الرعد : ٧ ] ، وكما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ الآية [ النحل : ٣٦ ] ، والآيات فى هذا كثيرة .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وهى : المعجزات الباهرات ، والادلة القاطعات ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهى الكتب ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أى : الواضح البين ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى : ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاؤهم به ، فأخذتهم ، أى : بالعقاب والنتكال ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أى : فكيف رايت إنكارى عليهم عظيما شديدا بليغا ، والله اعلم ؟

﴿الَّذِينَ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى منها على كمال قدرته فى خلقه الاشياء المتنوعة المختلفة من الشرى الواحد ، وهو الماء الذى ينزله من السماء ، يخرج به ثمرات مختلفا ألوانها ، من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض ، إلى غير ذلك من ألوان الثمار ، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُتجاوِرَاتٍ وَجَنَاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَانٌ وَغَيْرُ صِنَانٍ﴾ الآية [ الرعد : ٤ ] .

وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أى : وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان ، كما هو المشاهد أيضا من بيض وحمرة ، وفى بعضها طرائق - وهى : الجُدَد ، جمع جُدَّة - مختلفة الألوان أيضا . قال ابن عباس : الجُدَد : الطرائق . وكذا قال أبو مالك ، والحسن ، وقتادة ، والسدى . ومنها ﴿غَرَابِيبُ سُودٌ﴾ قال عكرمة : الغرابيب : الجبال الطوال السود . وكذا قال أبو مالك ، وعطاء الخراسانى وقتادة . وقال ابن جرير : والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد ، قالوا : أسود غريب .

وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ﴾ أى : كذلك الحيوانات من الأناسى والدواب - وهو : كل ما دب على قوائم - والأنعام ، من باب عطف الخاص على العام . كذلك هى

مختلفة أيضا ، فالناس منهم بربر وحبوش وطماطم فى غاية السواد ، وصقالبة وروم فى غاية البياض ، والمرب بين ذلك ، والهنود دون ذلك . ولهذا قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿وَإِخْلَافُ أَلْوَانِكُمْ وَإِنْ لِي ذَلِكَ لَأَيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ الروم : ٢٢ ] . وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان ، حتى فى الجنس الواحد ، بل النوع الواحد منهم مختلف الألوان ، بل الحيوان الواحد يكون أبلق ، فيه من هذا اللون وهذا اللون ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

ولهذا قال تعالى بعد هذا : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أى : إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ؛ لأنه كلما كانت المعرفة للمعظم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى - كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل ، كانت الخشية له أعظم وأكثر . قال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال : الذين يعلمون أن الله على كل شىء قدير . وقال : العالم بالرحمن من لم يشرك به شيئا ، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، وحفظ وصيته ، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله . وقال سعيد بن جبير : الخشية هى التى تحول بينك وبين معصية الله عز وجل . وقال الحسن البصرى : الإيمان من خشى الرحمن بالغييب ، ورغب فيما رغب الله فيه ، وزهد فيما سخط الله فيه ، ثم تلا الحسن : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ .

وعن ابن مسعود ، أنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث ، ولكن العلم عن كثرة الخشية .

وعن أبى حيان التيمى ، عن رجل قال : كان يقال : العلماء ثلاثة : عالم بالله عالم بامر الله ، وعالم بالله ليس بعالم بامر الله ، وعالم بامر الله ليس بعالم بالله . فالعالم بالله وبامر الله : الذى يخشى الله ويعلم الحدود والفرائض . والعالم بالله ليس بعالم بامر الله : الذى يخشى الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض . والعالم بامر الله ليس بعالم بالله : الذى يعلم الحدود والفرائض ، ولا يخشى الله عز وجل .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ ﴿لِيُؤْتِيَهُمُ أَجْرَهُمْ وَيزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ إِنَّهُمْ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه ، من إقام الصلاة ، والإنفاق بما رزقهم الله فى الأوقات المشروعة ليلا ونهارا ، سرا وعلانية ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ أى : يرجون ثوابا عند الله لا بد من حصوله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿لِيُؤْتِيَهُمُ أَجْرَهُمْ وَيزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أى : ليؤتيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ﴿إِنَّهُمْ غَفُورٌ﴾ أى : لذنوبهم ﴿شَكُورٌ﴾ للقليل من أعمالهم . قال قتادة : كان مطرف ، رحمه الله ، إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه آية القراء .

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿﴾

يقول تعالى : ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ وهو القرآن ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى : من الكتب المتقدمة يصدقها ، كما شهدت هى له بالتنويه ، وأنه منزل من رب العالمين ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أى : هو خبير بهم ، بصير بمن يستحق ما يفضله به على من سواه . ولهذا فضل

الأنبياء والرسل على جميع البشر ، وفضل النبيين بعضهم على بعض ، ورفع بعضهم درجات ، وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم ، صلوات الله عليهم أجمعين .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾

يقول تعالى : ثم جعلنا القائلين بالكتاب العظيم ، المصدق لما بين يديه من الكتب ، الذين اصطفينا من عبادنا ، وهم هذه الأمة ، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع ، فقال تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ وهو : المفرط في فعل بعض الواجبات ، المرتكب لبعض المحرمات ﴿ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ وهو : المؤدى للواجبات ، التارك للمحرمات ، وقد يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ﴾ وهو : الفاعل للواجبات والمستحبات ، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات .

قال ابن عباس في قوله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ قال : هم أمة محمد ﷺ ، ورثهم الله كل كتاب أنزله ، فظالمهم يعقر له ، ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب . وقال آخرون : بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ، ولا من المصطفين الوارثين الكتاب . وقال مجاهد في قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ قال : هم أصحاب المشأمة .

وقال مالك عن زيد بن أسلم ، والحسن ، وقتادة : هو المناق . ثم قد قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة : وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة في أول سورة « الواقعة » وأخرها .

والصحيح : أن الظالم لنفسه من هذه الأمة . وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية ، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ .

روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ﴾ ، فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حسابا يسيرا ، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يجسبون في طول المحشر ، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته ، فهم الذين يقولون : ﴿ أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا تُؤْرَبٌ ﴾ » (١) . وعن عبد الله بن مسعود ، أنه قال : هذه الأمة ثلاثة ثلاثة أيام يوم القيامة : ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ، وثلث يجسبون بذنوب عظام حتى يقول : ما هؤلاء ؟ - وهو أعلم تبارك وتعالى - فتقول الملائكة : هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام ، إلا أنهم لم يشركوا بك . فيقول الرب عز وجل : أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي . وتلا عبد الله هذه الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الآية . وعن عتبة بن صهبان الهنائي قال : سألت عائشة عن قول الله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ الآية ، فقالت لى : يا بنى ، هؤلاء في الجنة ، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ ، شهد له رسول الله ﷺ

بالحياة والرزق ، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فمثلى ومثلكم . قال : فجعلت نفسها معنا . وهذا منها ، رضى الله عنها ، من باب الهضم والتواضع ، وإلا فهي من أكبر السابقين بالخيرات ؛ لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام .

وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة ، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة ، وأولى الناس بهذه الرحمة ، فإنهم كما روى الإمام أحمد عن قيس بن كثير قال : قدم رجل من المدينة إلى أبي الدرداء - وهو بدمشق - فقال : ما أقدمك أي أخي ؟ قال : حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ . قال : أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا . قال : أما قدمت لحاجة ؟ قال : لا ؟ قال : أما قدمت إلا في طلب هذا الحديث ؟ قال : نعم . قال : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً ، سلك الله به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم ، وإنه ليستغفر للعالم من في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب . إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه به أخذ بحظ وافر » . وأخرجه أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه (١) . وعن ثعلبة بن الحكم ، عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء : إني لم أضع علمي وحكمي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم ، على ما كان منكم ، ولا أبالي » (٢) .

﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَهْلَنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾

يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده ، الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة ما واهم ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي : جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدمهم على الله عز وجل : ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » (٣) .

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ، ولهذا كان محظوراً عليهم في الدنيا ، فأباحه الله لهم في الدار الآخرة ، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « من لبس الحرير في الدنيا ، لم يلبسه في الآخرة » (٤) . ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ : وهو الخوف من المحذور ، أراحه عنا ، وأراحنا مما كنا نتخوفه ، ونحلنره من هموم الدنيا والآخرة .

قال ابن عباس ، وغيره : غفر لهم الكثير من السيئات ، وشكر لهم اليسير من الحسنات . ﴿الَّذِي أَهْلَنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يقولون : الذي أعطانا هذه المنزلة ، وهذا المقام من فضله ومثله

(١) المسند (٥/١٩٦) ، وأبو داود (٣٦٤١) ، والترمذى (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) وصححه الألبانى .

(٢) الطبرانى في الكبير (٢/٨٤) ، وقال الهيثمى في الزوائد (١/١٢٩) : « رجاله موثقون » .

(٣) مسلم (٤٠/٢٥٠) . (٤) مسلم (٢٠٣٣/٢١) .

ورحمته ، لم تكن أعمالنا تساوى ذلك . كما ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « من يدخل أحداً منكم عمله الجنة » . قالوا : « ولا أنت يا رسول الله ؟ » قال : « ولا أنا ، إلا أن يتخمدنى الله برحمة منه وفضل » (١) .

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَسَبٌ وَلَا بِمَسْنَاهَا نُفُوسٌ﴾ أى : لا يمسنا فيها عناه ولا إعياء . والنصب واللغوب : كل منهما يستعمل فى التعب . وكان المراد بنفى هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم ، والله أعلم . فمن ذلك أنهم كانوا يذنبون أنفسهم فى العبادة فى الدنيا ، فسقط عنهم التكليف بدخولها ، وصاروا فى راحة دائمة مستمرة ، قال الله تعالى : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَمْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْأُولَى﴾ [ الحاقة : ٢٤ ] .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْتُوهَا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾

لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء ، شرع فى بيان مآل الأشقياء ، فقال : ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فموتوا﴾ كما قال تعالى : ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [ طه : ٧٤ ] . وثبت فى صحيح مسلم : أن رسول الله ﷺ قال : « أما أهل النار الذين هم أهلها ، فلا يموتون فيها ولا يحيون » (٢) . وقال الله عز وجل : ﴿وَنَادُوا يَا مَلِكُ لِقْضَىٰ عَلَيْنَا رَبِّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّا كُنْتُمْ﴾ [ الزخرف : ٧٧ ] . فهم فى حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ، ولكن لا سبيل إلى ذلك ، قال الله تعالى : ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّتَخِلِفِينَ لَأَيُّكُمْ يُقْرَأُ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنُ وَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [ الزخرف : ٧٤ ، ٧٥ ] ، وقال : ﴿كُلَّمَا حَبَسْتَ ذُنُوبَهُمْ سَبْرًا﴾ [ الإسراء : ٩٧ ] ، ﴿فَذُوقُوا لَعْنَتَ رَبِّكُم بِالْأَعْدَابِ﴾ [ النبا : ٣٠ ] .

ثم قال تعالى : ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ أى : هذا جزاء كل من كفر بربه ، وكذب بالحق . وقوله : ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا﴾ أى : ينادون فيها ، يجارون إلى الله ، عز وجل ، بأصواتهم : ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أى : يسألون الرجعة إلى الدنيا ، ليعملوا غير عملهم الأول ، وقد علم الرب ، جل جلاله ، أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون . فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم ، كما قال تعالى مخبراً عنهم فى قولهم : ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ من سبيل . ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتهم وإن يشرك به تزمنوا [ غافر : ١١ ، ١٢ ] ، أى : لا يجيبكم إلى ذلك ، لأنكم كنتم كذلك ، ولو رددتم لعدتم إلى ما نهيتم عنه ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ﴾ أى : أو ما عشتم فى الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق به فى مدة عمركم ؟

وقد اختلف المفسرون فى مقدار العمر المراد هاهنا ، فروى عن على بن الحسين زين العابدين أنه قال : مقدار سبع عشرة سنة . وقال قتادة : اعملوا أن طول العمر حجة ، فنعوذ بالله أن نغتر بطول

(١) البخارى (٥٦٧٣) ، ومسلم (٧١/٢٨١٦) .

(٢) مسلم (٣٠٦/١٨٥) .

(٣) فى المخطوطة والطبعة : « مرد » وهو خطأ ، صوابه ما ابتناه .

العمر ، قد نزلت هذه الآية : ﴿ أَوْ لَمْ نَعْمَرِكُمْ مَا يَدْعُوا بِهِ مِنْ تَذَكُّرٍ ﴾ ، وإن فيهم لابن ثمانى عشرة سنة . وعن الحسن قال : أربعون سنة . وعن مسروق أنه كان يقول : إذا بلغ أحدكم أربعين سنة ، فليأخذ حذره من الله عز وجل . وهذه رواية عن ابن عباس - فيما رواه ابن جرير - قال : العمر الذى أعز الله إلى ابن آدم : ﴿ أَوْ لَمْ نَعْمَرِكُمْ مَا يَدْعُوا بِهِ مِنْ تَذَكُّرٍ ﴾ أربعون سنة . وهذا القول هو اختيار ابن جرير . ثم رواه عن ابن عباس قال : العمر الذى أعز الله فيه لابن آدم فى قوله : ﴿ أَوْ لَمْ نَعْمَرِكُمْ مَا يَدْعُوا بِهِ مِنْ تَذَكُّرٍ ﴾ ستون سنة . فهذه الرواية أصح عن ابن عباس ، وهى الصحيحة فى نفس الأمر أيضاً ، لما ثبت فى ذلك من الحديث . وقد روى أصبغ بن نباتة ، عن على ، أنه قال : العمر الذى عيّرهم الله به فى قوله : ﴿ أَوْ لَمْ نَعْمَرِكُمْ مَا يَدْعُوا بِهِ مِنْ تَذَكُّرٍ ﴾ ستون سنة .

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : أنه قال : « لقد أعز الله إلى عبد أحياء حتى بلغ ستين أو سبعين سنة ، لقد أعز الله إليه ، لقد أعز الله إليه » (١) .

وهكذا رواه الإمام البخارى عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أعز الله عز وجل إلى امرئ آخر عمره حتى يبلغه ستين سنة » (٢) .

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثاً وستين سنة . وقيل : ستين . وقيل : خمسا وستين سنة . والمشهور الأول ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ ﴾ روى عن ابن عباس ، وعكرمة ، وقناة ، أنهم قالوا : يعنى : الشيب . وقال السدى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى به الرسول ﷺ . وقرأ ابن زيد : ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأُولَى ﴾ [ النجم : ٥٦ ] . وهذا هو الصحيح عن قناة ، فيما رواه شيبان ، عنه أنه قال : احتج عليهم بالعمر والرسول . وهذا اختيار ابن جرير ، وهو الأظهر ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَتَادُوا يَا مَلِكُ لِنَفْسٍ عَلَيْنَا بِكَ قَالَ إِنكُم مَّا كُفِرْتُمْ . قَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكثَرْتُمْ لِّلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ [ الزخرف : ٧٧ ، ٧٨ ] ، أى : لقد بينا لكم الحق على السنة الرسل ، فأبيتهم وخالفتم ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مَعذِبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [ الإسراء : ١٥ ] ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ كَلِمَاتٍ أَنبَىٰ فِيهَا فُجْرٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَىٰ فَرَجَعْنَا نَذِيرًا فَكُنَّا مَا تَبَرَأَ إِلَهُ مِن شَيْءٍ وَإِنْ أَنتم إِلَّا فِي حُلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ [ الملك : ٨ ، ٩ ] .

وقوله : ﴿ فَلتوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ أى : فتوقوا عذاب النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء فى مدة أعماركم ، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّن خَلْقِ فِي الْأَرْضِ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُمْ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿١١﴾ ﴾

يخبر تعالى بعلمه غيب السموات والأرض ، وأنه يعلم ما تكنه السرائر وما تنطوى عليه الضمائر ، وسيجازى كل عامل بعمله .

(١) المسند (٧٦٩٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إنساده صحيح » .

(٢) البخارى (٦٤١٩) .

ثم قال عز وجل : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : يخلف قوم لآخرين قبلهم ، وجبل لجيل قبلهم ، كما قال : ﴿ وَيَجْعَلْكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ [ النمل : ٦٢ ] ، ﴿ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أى : فالما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره ﴿ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا مُقْتًا ﴾ أى : كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله ، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهلبيهم يوم القيامة ، بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله ، ارتفعت درجته ومنزله فى الجنة ، وزاد أجره ، وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنْ اللَّهُ يُمِيسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ : ان يقول للمشركين : ﴿ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى : من الاصنام والانناد ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ أى : ليس لهم شيء من ذلك ، ما يملكون من قسطير .

وقوله : ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ ﴾ أى : أم أنزلنا عليهم كتابا بما يقولون من الشرك والكفر؟ ليس الامر كذلك ، ﴿ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ أى : بل إنما اتبعوا فى ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانبيهم التى تمنوها لانفسهم ، وهى غرور وباطل وزور .

ثم اخبر تعالى عن قدرته العظيمة التى بها تقوم السماء والارض عن امره ، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما ، فقال : ﴿ إِنْ اللَّهُ يُمِيسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا ﴾ أى : ان تضطربا عن اماكنهما ، كما قال : ﴿ وَيُمِيسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [ الحج : ٦٥ ] ، وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ [ الروم : ٢٥ ] ، ﴿ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أى : لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو ، وهو مع ذلك حلِيم غفور ، أى : يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه ، وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يعجل ، ويستر آخرين ويغفر ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ .

﴿ وَأَسْمُوا بِأَنَّهُ جَعَدَ أَيْمَنَهُمْ لَيْتَ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِيَكُونُنْ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرَ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّمَاءَ الْأُولَىٰ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم ، قبل إرسال الرسول إليهم : ﴿ لَنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِيَكُونُنْ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾ أى : من جميع الامم الذين أرسل إليهم الرسل . قاله الضحاك وغيره ، كقوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ [ الانعام : ١٥٦ ، ١٥٧ ] ، وكقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ لَوْ أَنَّا عِدَّتْنَا ذُرًّا مِنْ الْأُولَىٰ لَكُنَّا

عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ. فَكَفَرُوا بِهِ فَسُوفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٦٧﴾ [ الصافات : ١٦٧-١٧٠ ] .

قال الله تعالى : ﴿ قَلَمًا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ وهو : محمد ﷺ ، بما أنزل معه من الكتاب العظيم ، وهو القرآن المبين ﴿ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ أى : ما ازدادوا إلا كفرًا إلى كفرهم ، ثم بين ذلك بقوله : ﴿ اسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : استكبروا عن اتباع آيات الله ﴿ وَمَكْرُ السَّيِّئِ ﴾ أى : ومكروا بالناس فى صدعهم إياهم عن سبيل الله ﴿ وَلَا يَحِقُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ أى : وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم . وقال محمد بن كعب القرظى : ثلاث من فعلهن لم ينجح حتى ينزل به من مكر أو بغي أو نكت ، وتصديفها فى كتاب الله : ﴿ وَلَا يَحِقُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ ، ﴿ إِنَّمَا بِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ [ يونس : ٢٣ ] ، ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ [ الفتح : ١٠ ] .

وقوله : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولَى ﴾ يعنى : عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم امره ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أى : لا تغير ولا تبدل ، بل هى جارية كذلك فى كل مكذب ، ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ أى : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ ﴾ [ الرعد : ١١ ] ، ولا يكشف ذلك عنهم ، ويحوله عنهم احد والله اعلم .

﴿ أَوْلَىٰ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُم مِّن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿١٦٨﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِرَّةً وَلَا حَبْرًا وَلَا لَئِن لَّمْ يَهِدِ اللَّهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةُ لَأَلَسَتْ بِفَرْدٍ ﴿١٦٩﴾ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٧٠﴾ ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جتتهم به من الرسالة : سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل ، كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، فخلت منهم منازلهم ، وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد كمال القوة ، وكثرة العدد والمعدد ، وكثرة الاموال والاولاد ، فما أغنى ذلك شيئا ، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء ، لما جاء امر ربك لانه تعالى لا يعجزه شيء إذا أراد ، كونه فى السموات والأرض ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ أى : عليم بجميع الكائنات ، قدير على مجموعها .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِرَّةً وَلَا حَبْرًا ﴾ أى : لو آخذهم بجميع ذنوبهم ، لاهلك جميع اهل الارض ، وما يملكونه من دواب وأوراق .

عن عبد الله [ بن مسعود ] قال : كاد الجمل أن يعذب فى جحره بذنب ابن آدم ، ثم قرأ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِرَّةً وَلَا حَبْرًا ﴾ . وقال سعيد بن جبير ، والسدى : أى : لما سقاهم المطر ، فماتت جميع الازباب .

﴿ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ، فيحاسبهم يومئذ ، ويوفى كل عامل بعمله ، فيجازى بالثواب اهل الطاعة ، وبالعقاب اهل المعصية ؛ ولهنا قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَحْسَنُ لَبَّاسِهِمْ أَنذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسْوَأَ لَبَّاسِهِمْ ﴾ .